الجمهورية الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التّعليم العاليّ والبحث العلميّ
Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique

جامعة عبد الرّحمن ميرة – بجاية–
كلّية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربيّ

Université A,MIRA de Béjaia
Faculté des Lettres et des Langue
Département d'Arabe

مقياس: الدّرس الصّوتيّ العربيّ القديم

المستوى: ماستر 01 **التّخصّص:** لسانيات عربيّة **الأستاذة:** ورديّة قلاز

الوحدة: الأساسيّة 01 **المعامل:** 02 **الرّصيد:** 04

الدّرس الصّوتيّ عند سيبويه

النّص:

نجد سيبويه (ت180هـ) يستعمل مصطلح الموضع للدّلالة على مصطلح المخرج، وذلك في مواضيع عديدة من الكتاب حيث نجده يقول في معرض حديثه عن الحروف المطبقة "... وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانه في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن (في مواضعهن) إلى ما حاذى الحنك الأعلى إلى موضع الحروف، أما الدّال والزاي، فإنّما ينحصر الصّوت إذا وضعت لسانك في مواضعهن... "

المطلوب: حلّل وناقش النّص؟

التّحليل:

1. الأصوات اللغوية عند سيبويه:

أنّ هؤلاء العلماء الأجلاء أمثال الخليل وغيره قد استطاعوا بالملاحظة فقط – ومعها كل الصعوبات– أن يصلوا إلى وصف دقيق للأصوات العربية دون أن يكون لهم من الوسائل الآلية التي يستخدمها المحدثون ما يستطيعون بواسطته توثيق نتائج مدركاتهم الحسية، ولقد بينوا مخارج الأصوات وصفاتها واشتمل ذلك عند الكثيرين منهم على أصوات غير عربية شاعت في البيئة العربية في القرن الثاني الهجري، وقد سمَّى سيبويه بعض هذه الأصوات الأجنبية وشبهها أصواتًا عربية مشهورة، ووصف ذلك بأنه "غير مستحسن ولا كثير في لغة من ترضى عربيته، ولا يستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر.

ويظهر أن سيبويه كان على وعي تامٍّ بأن دراسة الأصوات مقدمة لا بُدَّ منها لدراسة اللغة، وأن النظام الصوتي ضروري لمن أراد دراسة النظام الصرفي، بل لعله كان يرى في النظام الصوتي جزءًا لاحقًا، أو من دراسة الصرف نفسها، حتى إنه حين وضع الدراسات الصوتية تحت عنوان: "باب الإدغام" قد كشف عن وجهة نظره هذه من جهة، وقيد دراسة الأصوات وضيَّق مجالها من جهة أخرى. وتأتي دعوى تضييق سيبويه لمجال دراسة الأصوات من أن الإدغام ليس جزءًا من النظام الصوتي، وإنما هو ظاهرة موقعة سياقية ترتبط بمواقع محدَّدة يلتقي في كلٍّ منها صوتان؛ السابق منهما ساكن والتالي متحرك، فإذا تحقَّقت صفات خاصة في الصوتين جميعًا تحققت بذلك ظاهرة الإدغام كما فهمها سيبويه.

ولكن سيبويه مهَّد لدراسة الإدغام بدراسة الأصوات العربية تحت العنوان نفسه: "باب الإدغام"، فتناول هذه الأصوات بالوصف من حيث المخرج وطريقة النطق والجهر والهمس والتفخيم والترقيق، ناظرًا إلى الصوت في حالة عزلة عن السياق، تاركًا سلوك الصوت في السياق إلى دراسة الإدغام نفسه، ناهجًا في ذلك كله نهج النحاة –وهو من كبار أئمتهم– عندما درسوا الزمن النحوي؛ حيث نسبوا للصيغة في عزلتها زمنًا صرفيًّا، ولكنهم حين رأوا لها في السياق زمنًا آخر قد لا يطابق الزمن الصرفي جعلوا ينسبون الزمن إلى عناصر غير الأفعال وما جرى مجراها، فقد نسبوه إلى الأدوات وإلى بعض الجهات كالقلب والتنفيس وإلى بعض الظروف كذلك.

ولقد اتجه سيبويه وأصحابه عند النظر في استنباط الحروف من الأصوات اتجاهًا عكس ما يراه المحدثون، فسوف نرى في دراسة الصوتيات أن اتجاه البحث الحديث إنما يكون من الأصوات إلى الحروف؛ إذ ينظم الباحث ما لديه من أصوات جرت ملاحظتها ووصفها فيبوبها إلى مجموعات تسمى كل مجموعة منها حرفًا، وذلك كأن يجمع الأصوات المختلفة الدالة على النون مع اختلاف المخارج بين هذه الأصوات فيجعلها تحت عنوان واحد هو "حرف النون"، ولكن سيبويه وأصحابه حين تصدَّوا لتحليل الأصوات العربية كان بين أيديهم نظام صوتي كامل معروف ومشهور للغة العربية، وكانت الحروف التي يشتمل عليها هذا النظام قد جرى تطويعها للكتابة منذ زمن طويل، فكان لكل حرفٍ منها رمز كتابي يدل على الحرف في عمومه دون النظر إلى ما يندرج تحته من أصوات، فارتضى سيبويه وأصحابه هذا النظام الصوتي المشهور، واتخذوه نقطة ابتداء في دراستهم للأصوات العربية، ومن هنا رأينا الأصوات العربية التي تحت كل حرف من هذا النظام لا تعدو أن تكون صفة لهذا الحرف، كأن تكون إدغامًا له أو إقلابًا أو إخفاءً أو إمالةً وهلم جرا. وهكذا جاء منهج النحاة في دراسة الأصوات من حيث اتجاه الحركة عكس المنهج الحديث.

ولقد رأى سيبويه –وهو رأي شيوخه وأصحابه كذلك– أن أصول حروف العربية –يقصد الأصوات الرئيسية لحروفها– تبلغ في عددها تسعة وعشرين حرفًا هي:

1. الهمزة ورمزها (ء)، الألف ورمزها (ا)، الهاء ورمزها (هـ)، العين ورمزها (ع)، الحاء ورمزها (ح) الغين ورمزها (غ)، الخاء ورمزها (خ)، الكاف ورمزها (ك)، القاف ورمزها (ق)، الضاد ورمزها (ض) الجيم ورمزها (ج) الشين ورمزها(ش)، الياء ورمزها (ي)، اللام ورمزها (ل)، الراء ورمزها (ر)، النون ورمزها (ن)، الطاء ورمزها (ط) الدال ورمزها (د)، التاء ورمزها (ت)، الصاد ورمزها (ص)، الزاي ورمزها (ز)، السين ورمزها (س)، الظاء ورمزها (ظ)، الذال ورمزها (ذ)، الثاء ورمزها (ث)، الفاء ورمزها (ف) الباء ورمزها (ب)، الميم ورمزها (م)، الواو ورمزها (و).

ثم يضيف سيبويه إلى ذلك **ستة فروع** أصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة –يقصد كثرة ورودها في الكلام – يؤخذ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي:

1. النّون الخفيّة: والذي في كتاب سيبويه هو وصفها بلفظ (الخفيفة)، والمعروف أن النون الخفية غير النون الخفيفة؛ فالخفية هي نون الإخفاء قبل حروف الفم وهي التاء والثاء والجيم والدال والذال والزاي والسّين والشّين والصاد والضاد والطاء والظاء والفاء والقاف والكاف، وأما الخفيفة فهي إحدى نوني التّوكيد، ولها أحكام في الوقف تفردها بطابعٍ خاصٍّ حيث تصير في الوقف ألفًا نحو قفا = قفن .

2. الهمزة الّتي بين بين: وهي همزة متحركة تكون بعد ألف أو بعد حركة، فتصير في النطق مجرد خفقة صدرية لا يصاحبها إقفال للأوتار الصوتية نحو: (أأنت قلت للناس)، فإذا كانت الهمزة مفتوحة مكسورًا ما قبلها قلبت ياء، أو مضمومًا ما قبلها قلبت واوًا.

3. الألف الممالة إمالة شديدة: والمقصود به الألف الجانحة نحو الياء، وهي التي يقرأ بها القراء مثلًا قوله تعالى: {وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} فيجعلون صوت الألف الأخيرة في (الضحى) و(سجى) كصوت الياء في نطق العامة في مصر لكلمة (بيت).

4. ألف التّفخيم بلغة أهل الحجاز: وهي ألف تستدير في نطقها الشفتان قليلًا مع اتساع الفم نتيجة لحركة الفك الأسفل، ويرتفع مؤخر اللسان قليلًا فيصير الفم في مجموعه حجرة رنين صالحة لإنتاج القيمة الصوتية التي نسميها التفخيم على لغة أهل الحجاز، وهو أوغل في بابه من تفخيم القبائل الأخرى، حتى إن بعض الألفات المفخَّمة على لغة الحجازيين في مثل كلمتي: الصلاة والزكاة، لما جاورت أصواتًا غير مطبقة، فخشي مدونو القرآن على تفخيم الألف، فلهذا السبب كتبوها في صورة الواو ليعلم القارئ أن هذه الألف مفخمة.

5. الشّين الّتي كالجيم: وهي الشين المجهورة التي تشبه صوت الجيم في اللهجة السورية واللبنانية فكان الناطقون بهذه الشين من العرب. يجعلون كلمة أشدق كأنها أجدق، ومثل هذا ما نسمعه في لهجة القاهريين في كلمات مثل الأشغال والأشجار.

6. الصّاد الّتي كالزّاي: وهي صاد مجهورة مفخَّمة تشبه نطق العامة في مصر للظاء في كلمة (ظالم) مثلًا، والقاهريون ينطقون هذه الصاد المجهورة في كلمة (مصدر) كما كان العرب ينطقونها قديمًا ولكن العرب كانوا ينطقونها من أجل الصاد في مثل: الصقر والصراط كذلك.

ثم يضيف سيبويه إلى ذلك (حروفًا) ثمانية أخرى غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من تُرْتَضَى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، ولم يحدد سيبويه بالنسبة لهذه الثمانية ما إذا كانت قاصرة على الكلمات المعرَّبة من اللغات الأجنبية دون الكلمات الأصيلة في العربية، أو أنها كانت توجد في الكلمات الأصيلة كذلك، ولم يذكر سيبويه أيضًا ما إذا كانت هذه الأصوات لحنًا مما أصاب ألسنة العرب بسبب مخالطتهم الموالي، أو أنها وردت على ألسنة الموالي فقط، ثم إنه لم يشر إلى تقدير ما زعمه من كثرة الكثير وقِلَّة القليل في كل ما أورده، وهذ **الأصوات الثمانية** هي:

1. الكاف الّتي بين الجيم والكاف: ولم يمثِّل سيبويه لهذا الصوت، ولكن ابن عصفور في كتابه المقرب قال: إن الفعل الماضي "كمل" يصير عند النطق على طريقة هذ الكاف (جمل)، ولكن التّمثيل الخطَّي بصورة الجيم غير دقيق؛ لأن الجيم مجهورة، وهذا الصوت من أصوات الكاف لم يفقد همسه وإن أصبح معطشًا كتعطيش الجيم، وهذا الصوت هو الذي يصفه النحاة باصطلاح الكشكشة، وهو شبيه لما في نطق العراقيين لكلمة (كيف). ويسمع المرء مثل هذه الكاف في كلام بعض سكان المنطقة التي تقع على الحدود بين محافظتي الشرقية والدقهلية في شرق الدلتا.

2. الجيم التي كالكاف: ولم نجد في كلام سيبويه تمثيلًا لهذه الجيم، ولكن ابن عصفور جاء بمثال لها في المقرب أيضًا، إن كلمة "رجل" تصير بهذه الجيم إلى (ركل)، وهو بهذا يجعل هذه الجيم أختًا للجيمرية ومطابقة لها تمامًا.

3. الجيم التي كالشّين: ولم يمثل لها سيبويه، ولكن الواضح أن هذه المشبهة للشين كانت صوتًا من أصوات الجيم لا يرد إلّا في موقع خاصٍّ هو موقعه قبل تاء الافتعال، وقد مثَّل ابن عصفور له بكلمة (اجتمعوا) التي تصير إلى (اشتمعوا)، ونحن نعرف أن الكلمة الفصيحة (اجتر) قد أصبحت بفضل هذا الصوت من أصوات الجيم على صورة (اشتر)، وهكذا شاعت على ألسنة الفلاحين في ريف مصر شمالًا وجنوبًا.

4. الضاد الضّعيفة: ولسنا نجد تمثيلًا لها في كتاب سيبويه، ولم نر فيه شرحًا لطابع ضعفها، ولكننا نعرف أن الضاد الفصيحة كانت تنطق بواسطة احتكاك هواء الزفير المجهور بجانب اللسان والأضراس المقابلة لهذا الجانب، ومن ثمَّ يكون صوت الضاد الفصيحة من بين أصوات الرخاوة، مثله في ذلك مثل الثاء. ومن هناء وجدنا بعض العرب حين ينطقون كلمة تشتمل على صوت الثاء متلوًّا بحرف مفخم

مجهور يحدث في نطق الثاء شيء من عدوى التفخيم والجهر الضعيفة، فتصير الثاء بذلك ضادًا ضعيفة وقد مثَّل ابن عصفور لها بكلمة (أثر) التي تعتبر (أضر)، مع ملاحظة ما سبق من وصف نطق الضاد.

5. الصاد التي كالسين: ومع أن سيبويه لم يمثل لهذه الصاد لا نجد صعوبة في تصوّر المراد من هذا الشبه؛ إذ إن الصاد والسين تشتركان في المخرج وفي الصفات كلها إلّا التفخيم والترقيق، فالصاد مفخَّمة والسين مرقَّقة، وهذا هو الفارق الوحيد بينهما، ومن ثمَّ فإن إحداهما إذا أشبهت الأخرى فلا بُدَّ أن يكون معنى ذلك مشاركتها في الصفة الوحيدة التي فارقتها من جهتها، فإذا أشبهت الصاد السين فإن معنى أن تترك الصاد تفخيمها إلى ترقيق السين، وقد مثَّل ابن عصفور لهذا الصوت من أصوات الصاد بكلمة (صابر) التي تصير (سابر)

6. الطاء التي كالتاء: ولم يمثّل سيبويه لهذه الطاء أيضًا، ولكن كلامًا شبيهًا بما قيل في وجه الشبه بين الصاد والسين يمكن أن يقال هنا أيضًا في وجه الشبه بين الطاء والتاء، فالمعروف أن التفخيم والترقيق هو أوضح ما يفرق بين الطاء والتاء الآن، فإذا أشبهت الطاء التاء فقدت تفخيمها، وقد مثَّل ابن عصفور لهذا الصوت بكلمة (طال) التي تصير إلى صورة (تال)، ونحن نسمع من النساء السابق ذكرهن مثل هذه الطاء في وقتنا الحاضر.

7. الظاء التي كالثّاء: ولم نر مثالًا لها في كتاب سيبويه، ولكن النظر إلى الفارق بين الظاء والثاء يوضح أنهما يختلفان من وجهتين؛ أولاهما: الجهر والهمس، والثانية: التفخيم والترقيق، فإذا أشبهت الظاء الثاء فسيكون معنى ذلك أنها فقدت إما الجهر وإما التفخيم وإما هما معًا. ولقد جاء ابن عصفور بمثال لهذا الصوت فقال: إن كلمة (ظالم) تصير (ثالم)، ونحن قادرون على أن نفهم من مثاله هذا أن الظاء فقدت جهرها وهمست كهمس الثاء، أما التفخيم فمن الصعب في هذا المثال أن نقرر أن الظاء فقدته أو احتفظت به؛ لأن الكتابة العربية لا تصطنع رموزًا للدلالة على التفخيم والترقيق، ومن ثمَّ لا نستطيع الجزم بأن (ثالم) السابق ذكرها مفخَّمة (الظاء) أو مرققتها.

8. الباء التي كالفاء: لقد فهمت من كلام سيبويه في هذا الصوت أن الباء التي يعنيها هي ما يسمونه الباء الفارسية، وهي باء مهموسة مثل صوت (P) في اللغات الأجنبية، والمعروف أن العرب كانوا يعربون هذه الباء بقلبها فاء، ومن ثمَّ أصبحت كلمة (برزه) عند تعريبها (فرزدق)، وكلمة (بالوزه) فالوذج؛ ولكن ابن عصفور يزعم أن هذه الباء على ضربين أحدهما لفظ الباء أغلب عليه من لفظ الفاء، والآخر بالعكس نحو بلح. فهل يقصد بالأول ما يشبه صوت(V) وبالثاني صوت (P) ؟ لعله كذلك.

ومن الواضح أن سيبويه مع تفريقه بين أصول الحروف وفروعها لم يكن يفرّق بين اصطلاحي (الحرف) و(الصوت) على نحو ما يفرّق علم اللغة الحديث بين اصطلاحي (phoneme) و (sound)

أو(Allophone) ، فالحرف لديه يشمل كل ذلك. ومن الواضح أيضًا أن سيبويه جعل الكثير من الأعضاء الثانوية أو الفروع المختلفة للحروف على حد تعبيره أوصافًا تعرو العضو الرئيسي.

أو كما يسميه: الأصل، وسمَّى الأوصاف ولم يعدد الأصوات، وكان من بين ما سماها به الإدغام والإقلاب والإخفاء ونحوها، فوصف العضو الرئيسي بأنه مقلب أو مدغم أو مخفي، ولم تعدد الأعضاء الفرعية. ومن الواضح كذلك أن هذه الأعضاء الفرعية يختلف بعضها عن بعض كما تختلف جميعًا عن العضو الرئيسي، إما من حيث المخرج، وإما من حيث طريقة النطق، أو من حيث واحدة أو أكثر من الصفات، وقد أشرنا إلى ذلك عند كلامنا عن النون الخفيفة قبل قليل.

2. مخارج الأصوات العربية عند سيبويه: فعدَّها خمسة عشر مخرجًا هي:

1. ما بين الشفتين.
2. . باطن الشفة السفلى وأطراف الأسنان.
3. طرف اللسان وأطراف الثنايا.
4. طرف اللسان وفويق الثنايا.
5. طرف اللسان وأصول الثنايا.
6. ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا.
7. ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا أدخل في ظهر اللسان.
8. حافة اللسان إلى الطرف وما فوقهما.
9. أول حافّة اللسان وما يليه من الأضراس.
10. وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى.
11. مؤخر اللسان وما يليه من الحنك الأعلى.
12. أقصى اللسان وما يليه من الحنك الأعلى.
13. أدنى الحلق.
14. وسط الحلق.
15. اقصى الحلق.

والملاحظ أن طرف اللسان يرد ذكره في المخارج الخمسة ذوات الأرقام 3، 4، 5، 6، 7، وكذلك ترد معه الثنايا مع تباين الجزء الذي يتصل به طرف اللسان منها، ولقد ورد ذكر حافة اللسان في المخرجين 8، 9، وورد ذكر وسط اللسان في رقم 10، ومؤخره في 11، وأقصاه 12، وورد ذكر الحلق في 13 و14، 15 أي: أدناه ووسطه وأقصاه.

3. صفات الحروف عند سيبويه:

1. الشدة والرخاوة وما بينهما، واللين والهوى.

2. الجهر والهمس.

3. التفخيم والترقيق.

وجعل الشداد أربعة أقسام:

أ. ما يمتنع معه النفس.

ب. المنحرف.

ج. الأنفي.

د. المكرر.